إيديولوجيات اعتراضات الغزالي على الفلاسفة

د. رشيد ايت تزروالت
دكتوراه في الفلسفة
المغرب

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الإيديولوجيات التي احتوتها ردود الغزالي النقدية على الفلاسفة، والتي بلغت حد تكفيرهم وإخراجهم عن دائرة الإسلام. والبين أن أبي حامد لم يمارس نقده الحاد على الفلاسفة بإرادة معرفية وعلمية محضة، وإنما كان بذلك ينوي خدمة أوامر الخليفة السلجوقي المستظهر بالله، الذي عينه أستاذا بالمدرسة النظامية ببغداد، حتى يدافع عن المستظهرية أمام كل التيارات والأنظمة الأخرى التي تهددها، ولا سيما الباطنية ذات الجذور الفلسفية. وحتى نتناول هذه القضية قسمنا البحث إلى نقطتين أساسيتين، خصصنا الأولى لدراسة الظروف التي أفرزت المشروع النقدي للغزالي. بينما جعلنا الثانية تذهب في اتجاه بحث مدى ميل الغزالي نحو طلب الجاه وراء اعتراضاته على الفلاسفة. وسنتوسل في إنجاز هذه الدراسة بمنهج تحليلي نقدي نُجري من خلاله فحصا لاعتراضات الغزالي على الفلاسفة للكشف عن مكامن حسها الإيديولوجي.

مقدمة:

جاء الغزالي في سياق معقد ومتشعب، نتيجة ظهور سجالات سياسية مختلفة بين العديد من الأنظمة والدول الإسلامية، التي تسلحت بعقائد وأفكار متنوعة حتى تناور بها في صراعاتها وجدالاتها، بحيث تحاول كل واحدة منها الظهور بمظهر المنقذ من الضياع والضلال. نتيجة ذلك، تشكل صراع بين الدولة الفاطمية المقتنعة بالعقيدة الباطنية، والدولة العباسية السائرة على منوال العقيدة الأشعرية، إذ همّت الأولى بزرع أفكارها، وعقيدها، والأشخاص المنتسبين إليها داخل العديد من الدول والمدن الإسلامية، مما أشعر الثانية بنوع من الإحساس بالخطورة والتهديد الذي يواجهها.

دفع هذا الإحساس بالتهديد الدولة العباسية، بمساندة حلفائها السلجوقيين، إلى بحث بعض الحلول الممكنة للتصدي لزحف الباطنية، مما جعلهم يستدعون الغزالي للعب دور المنقذ من "فضائح" الباطنية، والمرشد إلى "فضائل" المستظهرية. لذلك، فهدف هذه الدراسة يتمحور حول الوقوف عند مدى كون أحكام حجة الإسلام التي أطلقها على خصومه، من الفلاسفة والباطنيين، قائمة على أساس علمي ومعرفي متين، أم أنها مجرد أحكام صيغت لتلبية إرادة الدولة السلجوقية.

بالموازاة مع ذلك، فالدراسة جاءت للإجابة عن إشكالية يمكن التعبير عنها من خلال التساؤلات الآتية: ما قيمة أحكام الغزالي في حق الفلاسفة والباطنيين؟ أليست مجرد أحكام إيديولوجية رام عبرها حجة الإسلام الاستجابة لإرادة الخليفة السلجوقي المستظهر بالله في الدفاع عن المستظهرية والإساءة للباطنية؟ ما طبيعة العلاقة التي تجمع الباطنية والفلسفة؟ ولماذا استهدفت أغلب ردود الغزالي على الفلاسفة ابن سينا بالذات؟

1_ ظروف المشروع النقدي للغزالي

1_1 صراع الأنظمة الفكرية

عاش الغزالي في القرن الرابع الهجري، الذي شهد امتدادا لجملة الأحداث والوقائع التي عرفها القرن الذي سبقه، من حيث بروز العديد من الدعوات الدينية، والأنظمة الفكرية التي نزلت إلى الساحة لخوض معركة نزع الاعتراف، وبيد كل طائفة طريقتها ومنهاجها في استقطاب المناصرين من الطلاب والدعاة، المنتظر منهم فيما بعد ترسيخ المذهب والدفاع عنه، وإقناع الحكام والوزراء بأهميته على باقي المذاهب الأخرى المتداولة. نتيجة ذلك، تشكّلت "أنظمة فكرية تتصارع وتخوض أعنف المعارك الكلامية وأهمها النظام الفكري الإسماعيلي ومدارس المعتزلة والأشعرية والصوفية وغيرها من الجماعات التي تسلحت بالمنطق والكلام والحديث والآيات، واتخذت من علومها سلاحا للإقناع وقطع ألسنة الأعداء، والتفوق في مضمار العلوم التي تُقرّب الطلاب وترضي الحاكمين"[1].

تعد التنظيمات الباطنية الإسماعيلية من بين أقوى الفرق التي ظهرت في هذه اللحظات، وحاولت الاستحواذ والسيطرة على كل الفرق الأخرى، وقد استطاعت أن تكون عقيدة الدولة الفاطمية في مصر، التي كانت تساندها وتقف وراءها، مما شكّل تهديدا للدولة السّلجوقية[2] التي تستظل بالخليفة العباسي، وقد توسعت هذه التنظيمات الإسماعيلية بقوة داخل بلدان أخرى بما في ذلك العراق، ونجحت في زرع منتمين ومناصرين لها في العاصمة بغداد، باستخدام لغة العنف والقتل. وقد أسفر عن هذه الأفعال الإجرامية للباطنية سفك دماء العديد من الأعلام البارزة، من قبيل محدّث مكة أبو الفضل بن جعفر بن يحيى الحكاك الذي "أتاه شاب صوفي الشكل من الباطنية ليلة عاشر رمضان فناوله قصة ثم ضربه بسكين في صدره فقضى عليه"[3]. كما قتلت الباطنية[4] أيضا في سنة اثنتين وخمسمائة للهجرة قاضي قضاة أصبهان عبيد الله بن علي الخطيبي بهمذان، وكذا فخر الإسلام القاضي أبا المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الروياني شيخ الشافعية وصاحب التصانيف[5]. واستمروا على هذا المنوال إلى أن اشتدّ الخوف والرعب في نفوس العديد من الناس. لذلك، قال فيهم ابن العِماد الحنبلي ما معناه: "عظُم الخطب بهؤلاء الملاعين وخافهم كل أمير وعالم لهجومهم على الناس"[6].

ارتكبت الباطنية مجازر كثيرة في حق بني البشر، بحيث كانوا يستحلون دماء كل من تبنى تأويلات تخرج عن إطار معتقداتهم، ولا سيما أصحاب المناصب المسؤولين من السلاطين والملوك، الذين لا يعتبرونهم أهلا للقيام بمهمتهم هاته إلا إذا كانوا يحظون بعصمة انتمائهم إلى نسل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزوجته فاطمة الزهراء ابنة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، بحيث تتحول الإمامة من الأب إلى الابن المتمتّع بالشروط العقلية والعرفانية الضرورية بالوصية.

---

[1] تامر، عارف، **الغزالي بين الفلسفة والدين**، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، لندن، 1987، ص 63.

[2] **"السلجوقية"** هم فرع من **"الغز"** الأتراك الذين أغاروا على حدود فارس الشرقية والشمالية في منتصف القرن الرابع للهجرة. جدّهم الأول هو "تقاق" ومعناه القوس، وهو والد سلجوق الذي كان أول من اتخذ الإسلام "دينا"، في بداية أمره هبط من تركستان إلى ما وراء النهر مع قبيلته فجعلوا مشتاهم في «نور» على مقرّبة من "بُخارى" ومصيفهم في ضواحي "سمرقند". وبعد سلجوق جاء ولده "ميكائيل"، ولكن الثلاثة الذين أعقبوا هذا الأخير كانوا من الملوك المشهورين وهم: طغرل بك، وألب أرسلان، وملِكشاه. في عهد ملِكشاه امتد سلطانهم من حدود الصين إلى حدود الشام ومن أقصى بلاد المسلمين شمالا حتى حدود اليمن جنوبا، وقد دفع لهم أباطرة الروم الجزية، واستطاعوا أن يُحطموا دولتين كانتا من أقوى الدول وهما: الغزنوية، والبويهية... تنقسم السلاجقة إلى عدة فروع أهمها: سلاجقة طغرل بك الكبار، وسلاجقة كرمان أسسها قره أرسلان، وسلاجقة سورية أسسها تتش بن أرسلان، وسلاجقة العراق وكردستان أسسها مغيث الدين محمود... ينظر: (تامر، عارف، **الغزالي بين الفلسفة والدين**، مرجع سابق، ص36).

[3] الحنبلي، ابن العِماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، الجزء الثالث، دار المسيرة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979، ص 373.

[4] هم عدة فرق سُمّوا بذلك لأنهم يدّعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، ولأنها ظواهر فهي مفهومة من العامة "الجُهال"، غير أنها عند "العقلاء" رموز وإشارات إلى حقائق خفية. ويقولون: من يتقاعد عقله من الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار للقرآن والأحاديث، وقنع بظواهرها، كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع. ومن ارتقى إلى علم الباطن انحطّ عنه التكليف واستراح من أعبائه، وهم المُرادون بقوله تعالى ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُم إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾، ومرادهم: أن ينزعوا من العقائد موجب الظواهر ليقدروا بالتحكم بدعوى الباطل على إبطال الشرائع... والذين أسسوا للدعوة الباطنية جماعة، منهم ميمون بن ديصان المعروف بالقدّاح، ومحمد بن الحسين الملقب بدندان، وكانوا نزلاء سجن بغداد، وفي السجن تداولوا في أمر الدعوة واستقروا عليها، فلما أُطلق سراحهم أظهروها، وقبل أول ظهور دعوتهم في زمن المأمون، وانتشرت في زمن المعتصم، وكانوا يظنون أن المُلك يعود إليهم. ينظر: (الحنفي، عبد المنعم، **موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية**، دار الرشاد، الطبعة الأولى، 1993 م، ص 96 وما بعدها).

[5] الحنبلي، ابن العِماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، الجزء الرابع، دار المسيرة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979، ص 4.

[6] المرجع نفسه، ص 4.

نشر المستشرق اليهودي إجناس جولدتسيهر (Ignas Goldziher) سنة 1916م، بعض أجزاء كتاب الغزالي "المستظهري" أو "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية"، ووضع لها مدخلا مطوّلا أشار فيه إلى الظروف التي دفعت بأبي حامد إلى تأليف هذا الكتاب، وقد عزاها إلى "استفحال أمر الدعوة الباطنية على يد الفاطميين الذين بثّوا الدعاة في أرجاء بلاد الخلافة دعوة للخليفة الفاطمي المستنصر، و تأليبا على الخليفة العباسي المستظهر بالله. ثم ما جرى على يد الباطنية من إرهاب وسفك للدماء"[7].

بالموازاة مع ذلك، تشكّل صراع مرير بين دولتين كبيرتين، الأولى ترتبط بالفاطميين الذين اتخذوا عاصمتهم القاهرة، وجعلوا "**الباطنية الإسماعيلية**" عقيدتهم الأولى، كما أسسوا "**جامع الأزهر**" بالقاهرة كمركز للسهر على تلقين تعاليمهم للشباب، وترسيخها في أذهانهم. أما الدولة الثانية، فتعود للعباسيين الذين التفُّوا حول المذهب الأشعري السني، وهمُّوا بنشره وتلقينه للطلاب في "**المدارس النظامية**" المعروفة داخل مدينة بغداد، التي كان السلجوقيون حينها يحكمونها باسم الدولة العباسية.

2_1 الغزالي في حضرة المستظهرية

لما أحست الدولة العباسية بخطورة التهديد الذي يواجهها من توسع العقيدة الباطنية[8]، وزيادة انتشارها وتجذرها؛ قام ممثّلوها بالتفكير في ضرورة تحصين أنفسهم، وتشويه سمعة الباطنيين، وتبيان الخطر الذي يشكّلونه على الناس، ولعل ذلك هو ما دفعهم إلى توجيه دعوتهم لأبي حامد الغزالي، حتى يكون أستاذا بنظامية بغداد[9]، يحاضر باسم الدولة العباسية، ويدافع على تعاليمها المستظهرية ويزكّيها.

استجاب أبو حامد للطلب الموجه إليه، وعُيّن أستاذا بالمدرسة النظامية، وبدأ يدافع على المستظهرية وينوه بفضائلها، ويُقلل من شأن الباطنية ويكشف عن هفواتها، وهو ما يثبته كتابه "**فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**"، الذي ألّفه لهذه الغاية بالذات.

لقد صرح أبو حامد بأن قبوله للدعوة الموجهة إليه من قِبل السلجوقيين كان من باب طاعة أمير المؤمنين، التي أوجبها الخالق عز وجل على عباده، وقد عبّر الغزالي عن ذلك بقوله: "فرأيت في الامتثال حتماً والمسارعة إلى الارتسام حزماً وكيف لا أُسارع إليه!؟ وإن لاحظت جانب الآمر ألفيته أمرا مبلغه زعيم الأمة وشرف الدين، ومنشؤه ملاذ الأمم أمير المؤمنين، وموجب طاعته خالق الخلق رب العالمين، إذ قال الله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُم﴾"[10].

لم تكن غاية تأليف الغزالي لكتابه في **الفضائح والفضائل** فقط الإساءة إلى الباطنية والكشف عن فضائحها، وإنما كذلك الدفاع عن المستظهرية، واعتبارها البديل الشرعي في الحكم والرئاسة. اعتبارا لذلك، نجده أفرد **الباب التاسع**[11] من هذا الكتاب لبحث البراهين الشرعية التي ستسانده في تأكيد فكرة كون الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته في عصره هو الإمام المستظهر بالله.

ألّف الباطني الإسماعيلي علي بن الوليد كتابا بعنوان "**دامغ الباطل وحتف المُناضل**" أفرده للرد على الغزالي، الذي سبق له أن انتقد الباطنية وأبرز فضائحها في كتابه الآنف الذكر، وقام بمناقشة حججه، وتوصّل إلى أن ما كتبه أبو حامد في كتابه هذا "أملته عليه الظروف السياسية القاسية التي كانت تُسيطر على العالم الإسلامي في تلك الأيام"[12].

---

[7] بدوي، عبد الرحمن، تصدير عام لكتاب "**فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**" لأبي حامد الغزالي، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، 1964، ص ج.

[8] ولا سيما الدعوة الإسماعيلية الرائدة للحركات الباطنية الدينية والسياسية، والتي اعتمدتها الخلافة الفاطمية في دول كالمغرب ومصر مثلا. كانت الإسماعيلية أشهر فرق الباطنية نظرا لما حازته من معطيات عقلية وسياسية وفكرية، وهو ما جعل حملات الدولة العباسية الشرسة في حق الباطنية تقصدها أكثر من غيرها.

[9] أسس نظام الملك السلجوقي المدارس النظامية ببغداد، من أجل مقاومة النظام الباطني الذي استفحل بقوة في البلاد آنذاك، وأصبحت كل الأنظمة الأخرى، بما في ذلك نظام الملك نفسه، مهددا من هذا الاستفحال والانتشار. وقد اتخذ نظام الملك ببغداد العقيدة الأشعرية كعقيدة رسمية للدولة، وعيّن أبو حامد الغزالي أستاذا ومتحدثا رسميا باسم النظام سنة 484 هـ، من أجل مجابهته للباطنية، وزرع الشك في تعاليمها. ينظر: (الجابري، محمد عابد، مقدمة كتاب "**فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**" لابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1997، ص 22) .

[10] الغزالي، أبو حامد، **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، 1964، ص ص 3_4.

[11] وسم أبو حامد الغزالي الباب التاسع من كتابه "**فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**" بعنوان: "**في إقامة البراهين الشرعية على أن الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته في عصرنا هذا هو الإمام المستظهر بالله، حرس الله ظِلاله**"، وذلك حتى يدافع عن المستظهرية ويحاجج عن أحقيتها في الحكم، ويبين أنها هي البديل الشرعي لكل التيارات والمذاهب الأخرى المنتشرة في زمانه. ينظر: (الغزالي، أبو حامد، **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**، مرجع سابق، ص 169).

[12] غالب، مصطفى، مقدمة كتاب "**دامغ الباطل وحتف المناضل**" لعلي بن الوليد، المجلد الأول، تقديم وتحقيق مصطفى غالب، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص 15.

ألّف الغزالي في نفس اللحظة التي تواجد فيها داخل مدينة بغداد كتبه الأخرى التي ردّ فيها على الفلاسفة، وذلك لما كان أستاذا بنظامية بغداد، وقد أشار في مُنقذه إلى أنه توجّه نحو دراسة الفلسفة لمدة ثلاث سنوات (484 هـ . . . . . 487 هـ . . .) قبل أن يبدأ في التأليف عنها ويكشف عن تهافتها، وخلال هذه المدة بالذات ألّف الكتب الآتية: "**فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**"، "**مقاصد الفلاسفة**"، "**تهافت الفلاسفة**"، "**الاقتصاد في الاعتقاد**". وهو الأمر الذي توقف عنده الغزالي لما قال ما دلالته: "فشمّرت عن ساق الجِد، في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية، وأنا ممنو بالتدريس والافادة لثلاث مائة نفر من الطلبة ببغداد. فأطلعني الله سبحانه، بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين. ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه قريبا من سنة، أُعاوده وأُردّده وأتفقد غوائله وأغواره، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل اطلاعا لم أشك فيه"[13].

ثمة ظروف صعبة، إذا، تخلّلت زمان الغزالي وأجبرته على الانخراط في مشروع الدولة السلجوقية المستظهرية، والانتصار لها أمام كل الخصوم الذين يُهدّدونها ويزعزعون أركانها، وذلك بالدعوة إلى شريعتها الأولى "**الأشعرية**"، ومحاولة استمالة المزيد من المناصرين والمؤيدين إلى كفتها. تحمل هذه الوقائع مبررات قوية عن الانتقادات القاسية التي وجهها الغزالي إلى بعض المذاهب الكلامية والفلسفية في ثنايا كتبه التي ألّفها وسط هذه الظروف.

2_ طلب الجاه وراء اعتراضات الغزالي على الفلاسفة

2_1 رفض الغزالي للباطنيين والفلاسفة

واجه الغزالي الفلاسفة في كتبه، وسعى نحو تقرير تهافتهم، وخروج تأويلاتهم عن إطار الشريعة، ولا سيما المتعلقة منها بابن سينا والفارابي التي كانت أرضيته الأساسية نحو تحقيق أهدافه. أقر أبو حامد بتباعُد هذين الفيلسوفين المشرقيين عن الإسلام الحق، وبأن استحضارهما لهذا الأخير في كتبهما ليس إلا للتجمّل به في سبيل إعلان أفكارهما الفلسفية، وإعطائها قدرا من المشروعية. لذلك نجده يقول: "هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب الإلهيين منهم، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي. وهؤلاء هم المتجمّلون بالإسلام"[14].

لم تكن نية هذين الفيلسوفين، في اعتقاد الغزالي، ترمي إلى تقديم الأقاويل التي تخدم الشريعة الإسلامية، بقدر ما كانا يستعملون هذه الأخيرة لأغراض تزيينية وجمالية. ولعل ما يبرر ذلك هو إتيانهم بما يتعارض مع الشرع في العديد من المسائل الشرعية، ولا سيما تلك المتعلقة بقدم العالم أو حدوثه، وعلم الله بالكليات والجزئيات، والمعَاد. وقد خصّ حجة الإسلام جزءا هاما من كتابه "تهافت الفلاسفة" للرد على أقاويل الفلاسفة بخصوص هذه المسائل الثلاث، وتبيان مدى الضلال والزَّيغ الذي وقعوا فيه.

ارتأى الغزالي وجوب تكفير الفلاسفة، وذلك بحكم طبيعة تأويلاتهم لهذه المسائل الثلاث، والتي انتهت بهم إلى القول بأن العالم قديم لقدم مادته التي تشكل منها، و بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات، و بأن الحشر للأرواح فقط دون الأجساد. ونجد الغزالي يوضح ذلك بالقول: "تكفيرهم لا بد منه في ثلاث مسائل، إحداها: مسألة قِدم العالم، وقالوا إن الجواهر كلها قديمة. والثانية قولهم: إن الله تعالى، لا يحيط علما بالجزئيات الحادثة، من الأشخاص. والثالثة: إنكارهم بعث الأجساد وحشرها. فهذه المسائل الثلاث، لا تلائم الإسلام بوجه، ومعتقدها معتقد كذّب الأنبياء . . . . . صلوات الله عليهم وسلامه . . . . . وأنهم ذكروا ما ذكروه على سبيل المصلحة، تمثيلا لجماهير الخلق وتفهيما، وهذا هو الكفر الصراح، الذي لم يعتقده أحد من فرق الإسلام"[15].

---

[13] الغزالي، أبو حامد، **المنقذ من الضلال والمُوصل إلى ذي العزة والجلال**، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981، ص 95.

[14] المصدر نفسه، ص 156.

[15] الغزالي، أبو حامد، **تهافت الفلاسفة**، تحقيق سليمان دنيا، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر-القاهرة، 1966، ص 307 وما بعدها.

ردّ الغزالي أيضا على بعض الفرق الكلامية، ولا سيما الباطنية كما رأينا آنفا، بحيث توقف عند فرق مذهب الباطنية المتعددة، ومرتكزاتها الهامة في الإمامة والنبوة وغيرها. لكن الغزالي لم يكن حينها قد اتخذ هذا المسار بوازع معرفي وعلمي، وإنما جاءت أفكاره لخدمة إيديولوجيات نظام الخليفة المستظهر بالله العباسي، فهو يبيّن ذلك بنفسه عندما قال: "فإني لم أزل مدة المقام بمدينة السلام متشوقا إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية ضاعف الله جلالها، ومدّ على طبقات الخلق ظِلالها بتصنيف كتاب في علم الدين أقضي به شكر النعمة، وأقيم به رسم الخدمة...، حتى خرجت الأوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالإشارة إلى الخادم في تصنيف كتاب في الرّد على الباطنية مشتمل على الكشف عن بدعهم وضلالاتهم، وفنون مكرهم واحتيالهم، ووجه استدراجهم عوامّ الخلق وجهالهم، وإيضاح غوائلهم في تلبيسهم وخداعهم، وانسلالهم عن ربقة الإسلام، وانسلاخهم وانخلاعهم وإبراز فضائحهم وقبائحهم، بما يُفضي إلى هتك أستارهم وكشف أغوارهم"[16].

يمكن أن تراود الباحث مجموعة من الأسئلة وهو يتأمل مؤلفات الغزالي النقدية الكبرى، والتي استهدف بها أساسا فرقة الباطنية الإسماعيلية من جهة، وكذا مذهب الفلاسفة من جهة ثانية. ومن بين هذه الأسئلة نذكر: لماذا ردّ الغزالي على الفلاسفة في نفس اللحظة التي ردّ فيها على الباطنية؟ هل توجد قواسم مشتركة بين التوجهين، مما حتّم عليه أمر الرد عليهما معا؟ وما السبب في تركيز القول حول ابن سينا بالذات بينما تم استثناء الحديث عن نماذج أخرى تأسيسية داخل الفكر الفلسفي الإسلامي الوسيط من قبيل الكندي، كما تم الوقوف أيضا عند آخرين كالفارابي وابن باجة تجاوزا؟

يبدو أن هناك اهتمام فرقة الباطنية بالفلسفة، بحيث جعلت أغلب أفكارها تنحو هذا المنحى، وهو ما جعل الباحث محمد البوغالي يؤلّف كتابا وسمه بعنوان: "الباطنية بين الفلسفة والتصوف"، الذي قال فيه وهو يحاول إبراز الأفكار التي تشكل جوهر الباطنية ما معناه: "وفي مقدمة هذه المواصفات نعثر على فكرة السر وفكرة المطابقة والخيال والوسائط وفكرة الطبيعة الحية وغيرها، وهي أفكار تشكل مجتمعة جوهر الباطنية باعتبارها صياغة نظرية عامة يمكن أن تجد تطبيقها وتجلياتها في أطياف فكرية ودينية وفلسفية متعددة وفي بيئات اجتماعية مختلفة"[17].

كما قال الغزالي عن الباطنية لما أراد انتقادها ما نصُّهُ: "فمن بواطن غيّهم كان استمداد هؤلاء، فإنهم بين مذاهب الثنوية والفلاسفة يتردّدون، وحول حدود المنطق في مجادلاتهم يُدندنون"[18]. تبعا لذلك، فلمّا تراءى لأبي حامد فكرة كون مذهب الباطنية يقوم على أساس من الفلسفة، وكان عمله ينصبّ في الرد على الباطنية؛ ومنه فالردّ على الفلاسفة وانتقادهم، ارتآه طريقا مناسبا للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه على أكمل وجه. لقد أكد الغزالي، بموقفه النقدي الذي عبر عنه في كتابه "**تهافت الفلاسفة**"، أمل القادة السياسيين العباسيين السلجوقيين في توحيد الأساس الديني لإمبراطوريتهم، كما عبّر لهم عن جاهزيته للمساهمة في ترسيخ الروح الثقافية والدينية[19].

يحظى ابن سينا بأهمية كبيرة داخل الفكر الفلسفي الوسيط، حيث كان علَما في الفلسفة قلّ نظيره في زمانه، وهو ما جعل كل الذين يحملون هم الرّد على الفلاسفة وتبيان تهافتهم يأخذونه منطلقا لهم، اعتقادا منهم أنه يُشكّل الأساس الذي إنْ تمّ هدمه سيتم هدم البناء ككل، ولعل هذا الأمر هو ما جعل الشهرستاني يقول: "وقد وقع الاتفاق على أن المبرّز في علوم الحكمة وعلامة الدهر في الفلسفة، أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا فلا يقفوه فيها قاف وإن نقض السّواد، ولا يلحقه لاحق وإن ركض الجواد...، فأردت أن أصارعه مصارعة الأبطال، وأُنازله منازلة الرجال"[20]. ولما كان الأمر كذلك، فمن الأكيد أن تستهدف تصويبات الغزالي الفيلسوف ابن سينا، معتقدا أن التنكيل به والكشف عن تهافته، من شأنه أن يقوده تلقائيا إلى التنكيل بالفلاسفة كلهم، وجعلهم متهافتين.

---

[16] الغزالي، أبو حامد، **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**، مرجع سابق، ص ص 2_3.

[17] البوغالي، محمد، **الباطنية بين الفلسفة والتصوف**، المطبعة والوراقة الوطنية، دار فضاء آدم للنشر، الطبعة الأولى، مراكش، 2016، ص67.

[18] الغزالي، أبو حامد، **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**، مصدر سابق، ص 4.

[19] Wohlman, Avital, ***Al-Ghazali, Averroes and the Interpretation of the Qur'an, common sense and philosophy in Islam*** , Translated by David Burrell, Routledge, Taylor and Fracis Group, First Published, London and New York, 2010, p 12.

[20] الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، **مصارعة الفلاسفة**، تحقيق وتقديم وتعليق سُهير محمد مختار، الطبعة الأولى، 1976، ص ص 15_16.

2_2 الغزالي وطلب الجاه

بيّنا سابقا كيف استجاب الغزالي لدعوة الخليفة المستظهر بالله، الرامية إلى تعيينه أستاذا بالمدارس النظامية ببغداد، لكي يُلقّن تعاليمهم المستظهرية للطلبة، ويساندها أمام كل التحديات التي تواجهها، ويسهم في إبداء فضائلها ومحاسنها، مقارنة بغيرها من الأنظمة الأخرى السائدة، ولا سيما مذهب الباطنية. وقد وقع الاختيار على الغزالي بالذات بفضل سمعته وموهبته التي اكتسبها في تلخيص أفكار المثقفين الآخرين بوضوح ودقة، وهو ما أكدته ترجمته لعمل ابن سينا في كتابه "**مقاصد الفلاسفة**"[21].

بناء على ذلك، فالمشروع الفكري لأبي حامد لم يقم على انتقادات نزيهة ومحايدة، ولكنه قام على أرضية متميزة بتلبية نداء الخليفة السلجوقي المستظهر بالله الذي كلّفه لتحقيق أغراضه الإيديولوجية، وذلك من خلال مواجهة بعض المذاهب الفلسفية والكلامية التي تشوّش على سيادته. وقد كانت آمال الغزالي من ذلك هو اكتساب السمعة والجاه كما بيّن ذلك بقوله: "وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يُكتسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي"[22].

يصرّح أبو حامد في هذا القول، أن العلم الذي خطّه في حضرة الدولة السلجوقية، لم يكن يرمي من خلاله إلى الكشف عن اليقين، وإنما كان يسعى من خلاله إلى الحظي بالمكانة والجاه، وهو ما جعله يبيّن في كتاب "**المنقذ من الضلال**" الذي ألّفه بعدما انفصل عن الحكام والوزراء، ومضى نحو ممارسة تأملاته الصوفية التي جعلته يراجع العديد من أحكامه؛ أنه لن يخوض مرة أخرى في أذيال الضلال الذي ضاع فيه لمدة[23]، ولكنه سيدعو "إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويُعرف به سقوط رتبة الجاه"[24].

يُنشئ الغزالي نوعا من المعرفة النقدية المدفوعة بالسلطة، بحيث لا يتكلم من تلقاء ذاته، ولا تعبر الأفكار التي تأتي منه عن نواياه الخاصة، وإنما يظهر بمثابة وسيلة في يد سلطة يُغذّيها، ويساندها في تحقيق المزيد من السيادة والتمكين. إنه متكلّم استُغل من أجل خدمة سلطة تقبع وراءه، تُحرّكه وتسخّره في سبيل تنفيذ مخططاتها المرسومة وأهدافها الإيديولوجية المحددة. هذا وإن اعتقد الغزالي بأنه ليس موضوعا عاديا للقوى السياسية، بل زميلاً في العمل ينشط في تحقيق مجتمع إسلامي جدير بهذا الاسم[25].

خاتمة:

تميز السياق العام الذي جاء فيه الغزالي بصراع المذاهب والتيارات الفكرية والكلامية والفلسفية، بحيث كانت كل فئة تحاول أن تستميل الكفة لصالحها، وتبدي أهميتها على حساب غيرها. ويمكن القول إن أهم صراع عرفته هذه اللحظة كان بين الدولة الفاطمية التي آمنت بالطريقة الباطنية الإسماعيلية واقتنعت بها من جهة أولى؛ والدولة العباسية–السلجوقية التي اختارت المذهب الأشعري السني من جهة ثانية. وقد مضت الباطنية في الانتشار والتجذر أكثر داخل العديد من البلدان الإسلامية، بما في ذلك العراق نفسه مكان وجود الدولة السلجوقية المتحالفة مع العباسيين، مما شكل تهديدا حقيقيا على هذه الأخيرة، التي تطلب منها الأمر البحث عن حلول معينة للتصدي لمذهب الباطنية والحد من زحفها القوي.

لهذا السبب استدعت الدولة السلوجوقية حجة الإسلام لتولي مهمة التصدي للباطنية وتبيان عيوبها وفضائحها، مقابل مدح الظاهرية والتأكيد على فضائلها ومحاسنها. وحتى يتسنى له ذلك، اختير أستاذا بالمدارس النظامية ببغداد، حتى يروج لتعاليم الظاهرية ويناصر عقيدتهم "الأشعرية" ويرغّب فيها، ويتصدى لكل ما من شأنه أن يهددهم، بما في ذلك الفلاسفة الذين كانوا مصدر تأثير الباطنيين في نسج خيوط فكرهم.

---

[21] Wohlman, Avital, ***Al-Ghazali, Averroes and the Interpretation of the Qur'an, Common Sense and Philosophy in Islam***, op. cit, p 11.

[22] الغزالي، أبو حامد، **المنقذ من الضلال والمُوصل إلى ذي العزة والجلال**، مصدر سابق، ص 160.

[23] يقول أبو حامد الغزالي: "**ولسنا نستبعد ذلك، فلقد تعثرنا في أذيال هذه الضلالات مدة، لشُؤم أقران السوء وصحبتهم حتى أبعدنا الله عن هفواتها، ووقانا من ورطاتها**". ينظر: (الغزالي، أبو حامد، **جواهر القرآن**، الطبعة الأولى، مطبعة كردستان العلمية، 1329 هـ، ص 45_46).

[24] الغزالي، أبو حامد، **المنقذ من الضلال والمُوصل إلى ذي العزة والجلال**، مصدر سابق، ص 160.

[25] Wohlman, Avital, ***Al-Ghazali, Averroes and the Interpretation of the Qur'an, Common Sense and Philosophy in Islam***, op. cit, p 12.

نتيجة ذلك، فالانتقادات اللاذعة التي وجهها الغزالي للفلاسفة والباطنيين وغيرهم ممّن أعدهم خصوما، لم تقم على أساس علمي ومعرفي نزيه، وإنما شابها العديد من الإيديولوجيات التي فرضتها عليه الدولة السلجوقية، بحيث كان دوره الأساسي هو تلبية طلب الخليفة الذي عينه للاستجابة لأهدافه ومخططاته، وقد تم اختياره لكونه آنذاك شخصية ذات قدرات تحليلية ونقدية وإقناعية قوية.

لقد كانت غاية الغزالي من ردوده النقدية على الفلاسفة هو طلب الجاه، كما صرح هو نفسه بذلك، ولا سيما أنه قبل استدعائه لممارسة الأستاذية في المدارس النظامية كان قد عاش ويلات الفقر والحرمان، لذلك فهو لن يتوان قليلا في قبول طلب الاشتغال تحت وصاية الخليفة المستظهر بالله، لأن ذلك سيحسّن أوضاعه لا محالة، ويُكسبه شهرة وجاها بين صفوف العلماء والفقهاء.

المصادر والمراجع:

✓ المصادر والمراجع باللغة العربية:

المصادر:

- الغزالي، أبو حامد، **المنقذ من الضلال والمُوصل إلى ذي العزة والجلال**، تحقيق جميل صليبا وكامل عياد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1981.
- الغزالي، أبو حامد، **تهافت الفلاسفة**، تحقيق سليمان دنيا، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر-القاهرة، 1966.
- الغزالي، أبو حامد، **جواهر القرآن**، الطبعة الأولى، مطبعة كردستان العلمية، 1329 هـ . . .
- الغزالي، أبو حامد، **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، 1964.

المراجع:

- تامر، عارف، **الغزالي بين الفلسفة والدين**، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، لندن، 1987.
- الحنبلي، ابن العِماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، الجزء الثالث، دار المسيرة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979.
- الحنفي، عبد المنعم، **موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية**، دار الرشاد، الطبعة الأولى، 1993.
- الحنبلي، ابن العِماد، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، الجزء الرابع، دار المسيرة، الطبعة الثانية، بيروت، 1979.
- بدوي، عبد الرحمن، تصدير عام لكتاب "**فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**" لأبي حامد الغزالي، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، 1964.
- الجابري، محمد عابد، مقدمة كتاب «**فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**» لابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1997.
- غالب، مصطفى، مقدمة كتاب "**دامغ الباطل وحتف المناضل**" لعلي بن الوليد، المجلد الأول، تقديم وتحقيق مصطفى غالب، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1982.
- البوغالي، محمد، **الباطنية بين الفلسفة والتصوف**، المطبعة والوراقة الوطنية، دار فضاء آدم للنشر، الطبعة الأولى، مراكش، 2016.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، **مصارعة الفلاسفة**، تحقيق وتقديم وتعليق سُهير محمد مختار، الطبعة الأولى، 1976.

✓ المراجع باللغات الأجنبية:

- Wohlman, Avital, **Al-Ghazali, Averroes and the Interpretation of the Qur'an, common sense and philosophy in Islam**, Translated by David Burrell, Routledge, Taylor and Fracis Group, First Published, London and New York, 2010.